

الفصل الثالث

استبدال التركيب بالتركيب

إذا كانت اللغة: «هي التنظيم المثالي الداخلي الذي يفرض على المتكلم تصوراً ورؤية لما يحيط به في العالم الخارجي»⁽¹⁾، فإن العلاقة بين اللغة والفكر جلية من خلال التعبير عن مقاصده بالتركيب النحوية التي تحوي في تكوينها الأدوات والصيغ بالتناسق الذي عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: «ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»⁽²⁾ مؤلفة الجملة التي تعرف بأنها «المركب الذي يبيّن به المتكلم أن صورة ذهنية كانت قد تألفت أجزاءها في ذهنه، ثم هي الوسيلة التي تنقل ما جال في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع»⁽³⁾.

والجملة في علم النحو هي: «الركيزة الرئيسة في التحليل اللغوي، وهي «الوحدة اللغوية الأكبر في التحليل اللغوي»⁽⁴⁾، ذلك أن المكونات اللغوية تتصافر فيما بينها على وفق أصول مرعية تبلغ غايتها عند الجملة، وتعمل هذه الأصول متضامة بنظام من العلاقات، لأن «أجزاء الجملة مترابطة، فالجزء الواحد يقتضي الآخر في تنظيم علائقي»⁽⁵⁾، وتتجلى هذه العلاقات بشكل واضح في القرآن الكريم الذي يستبدل التركيب فيه بالتركيب كما تستبدل الأداة بالأداة

(1) خليل أحمد عمارة - في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، جدة، 1984 م، ص: 44.

(2) دلائل الإعجاز، ص: 40 - 41.

(3) مهدي المخزومي - في النحو العربي، نقد وتوجيه، بيروت، 1964 م، ط 1، ص: 31.

(4) جوانب من نظرية النحو، ص: 9.

(5) Linguistics units and items: P. 10.

والصيغة بالصيغة، لتحقيق بوساطة ذلك المقاصد الدلالية التي تناسب الأحداث والمواقف والدعوات ومعاني الأحكام الشرعية بالدقة الإعجازية التي لا تُحَدِّد، مما هو سمت القرآن الكريم في كل أسرار بنائه اللغوي.

ومما تجب الإشارة إليه في هذا الموضوع سعة التعبير بالتركيب الفعلية في القرآن الكريم وكثرتها بحيث لا يتسع البحث لاستيعابها جميعاً في هذا المقام، لأن التعبير بهذه التراكيب أصل من أصول بناء الكلام العربي، وسنفرغ نحن في هذا الفصل لدراسة أنماط استبدال التركيب فيه بالتركيب، لنأتي بذلك على النوع الثالث من أنواع الاستبدالات النحوية التي رصدناها في نصه المعجز الرفيع.

الفعلية الماضي ← الفعلية الماضي:

قال تعالى في سورة الأعراف⁽¹⁾: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾، وقال في سورة البقرة⁽²⁾: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَنْفُسُونَ﴾، فذكر الإرسال والإنزال بفعليهما الماضيين. السياق في سورة البقرة وارد في مقام تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، وفي سورة الأعراف في مقام تقريرهم وتأنيبهم، كما أسلفنا⁽³⁾، والإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، لأنه في العذاب: التسلط⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿١﴾﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾⁽⁶⁾، وقد وقف الفخر الرازي عند الفرق بين

(1) سورة الأعراف، الآية: 162.

(2) سورة البقرة، الآية: 59.

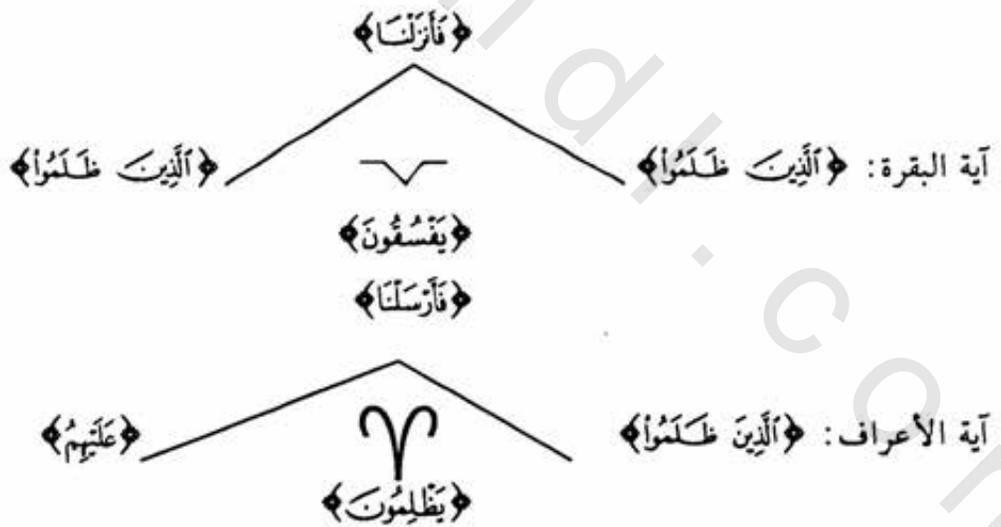
(3) ينظر: الصفحة 89 من هذا الكتاب.

(4) لسان العرب: (285/11) مادة: رسل؛ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: 203.

(5) سورة الفيل، الآيتان: 3 - 4.

(6) سورة الذاريات، الآية: 41.

الإرسال والإنزال متساوياً بقوله: «لِمَ قَالَ فِي الْبَقْرَةِ: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾، وَقَالَ فِي الْأَعْرَافِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾؟» ثم أجاب بقوله: «الإنزال يفيد حدوثة في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستتصاليه لهم بالكلية، وذلك إنما يحدث بالآخرة»⁽¹⁾، ولا تخفى أن التعبيرين: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿فَأَنْزَلْنَا﴾ يتقاسمان معنىً مشتركاً، غير أنهما يختلفان في المعنى التنظيمي المعتمد على الرابطة التي تشد الكلمة بالكلمة على وفق دواعٍ صريحة وإيحائية تبدأ من المعنى المعجمي وتنتهي بالمعنى السياقي الذي يواشج بين المقامات المقالية والحالية مواشجةً دلالية ظاهرة أو خفية، مما يلتمسه الإنسان بالتأمل والتذوق والبصيرة اللغوية النافذة، ومن هنا كان الإرسال متسقاً مع الظالمين من بني إسرائيل ليعلم أن الرجز قد سُلط عليهم تسليطاً خاصاً بهم لتفاقم جرمهم، بخلاف الإنزال الذي أخذ القوم، وكان في اتساع الدائرة مما يخفف نوع العذاب الذي لحق بكل فرد منهم بوصفهم فسقة ليس إلا، وبرصد ما جرى من تحويل في مكونات التركيب الكبير في الآيتين:



(1) التفسير الكبير: (3/94)؛ وينظر: (15/35).

سنرى أن «الظلم» أشد دلالة من «الفسق»، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق⁽¹⁾، لذلك ناسب ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ مقام سورة الأعراف، و﴿أَنْزَلْنَا﴾ و﴿يَفْسُقُونَ﴾ مقام سورة البقرة، فضلاً عن كثرة استعمال كلمتي «رسول» و«رسالة» في الأعراف⁽²⁾ دون البقرة، وما يمكن أن يتصور من اقتضائه لفعل الإرسال بوصفه نسقاً لغوياً ملحوظاً ومقصوداً في بناء السورة كلها.

ومن استبدال التركيب الفعلي الماضي بنظيره أيضاً، قوله تعالى في سورة الأعراف⁽³⁾: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، وقوله في سورة النمل⁽⁴⁾: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَائِبَاتِ﴾، فذكر كينونة امرأة لوط في الغابرين، وما قدر لها أن تكون فيهم. والفرق كبير بين العبارتين: ﴿كَانَتْ﴾ و﴿قَدَرْنَاهَا﴾، لأن فعل الكون ماضٍ ناقص محتاج إلى اسم وخبر، وهو دالٌّ على أن بقاء المرأة مع المهلكين من قوم لوط لتهلك معهم كان بمحض إرادتها، بيد أن الجملة الأخرى بفعالها الماضي وفاعله ومفعوله دالّة على أن بقاءها وهلاكها كان بتقدير من الله تعالى، فإذا عرفنا أن سورة الأعراف سابقة في النزول لسورة النمل أدركنا في تمثل معنى العبارتين: أن المرأة كانت من المهلكين بمحض إرادتها واختيارها بتقديره تعالى وعدله⁽⁵⁾. ومما يُلحظ من أسرار العبارتين أن: العلاقة القائمة بين (كان) و«امرأة لوط» في آية الأعراف علاقة خبرية:

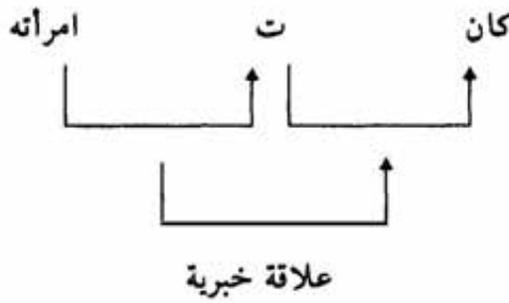
(1) ينظر: الإتيان: (392/3 - 393)؛ معترك الأقران: (88/1).

(2) الآيات: 6، 35، 37، 43، 53، 57، 59، 61، 62، 67، 68، 75، 77، 79، 87، 93، 94، 101، 104، 105، 111، 133، 134، 144، 157، 158، 162.

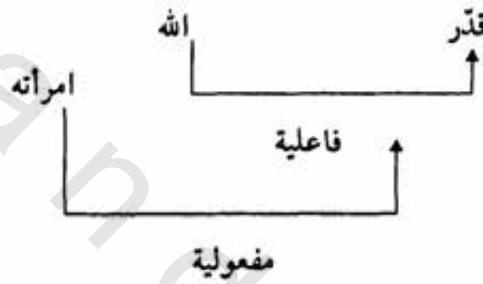
(3) سورة الأعراف، الآية: 83.

(4) سورة النمل، الآية: 57.

(5) ينظر: القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته، ص: 193.



ويفهم من هذا : أن الله تعالى يخبرنا عن أمر تلك المرأة دون تدخل مباشر منه ،
بخلاف العلاقة القائمة بين الفعل «قَدَر» و «امرأة لوط» في سورة النمل ، لأنها
فاعلية ومفعولية :



ويفهم من هذا : أن الفعل المباشر هو من عند الله في القضية كلها ، بدليل إسناد
التقدير إلى نفسه بضمير الجمع : «نا» . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن تقدير الله
تعالى بإهلاك امرأة لوط مع من هلك قد جاء في سورة النمل بعد قوله على لسان
قوم لوط : ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾⁽¹⁾ ، فقد خلع هؤلاء القوم رداء الحياء ،
وجهروا بالفاحشة فزاد لوط عليه الصلاة والسلام في الإنكار عليهم وتقريعهم ،
فقال تعالى على لسانه : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ
بُصُورُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُم مِّنَ الرِّجَالِ شَهَوَةٌ مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾⁽⁶⁾ ،

(1) سورة النمل ، الآية : 56 .

(2) سورة النمل ، الآيتان : 54 - 55 .

فقابلوه بالتصريح بإخراجه مع أهله، فكان تقدير الله تعالى بقاء امرأته معهم ليصيبها ما يصيبهم من الهلاك لأنها منهم بالإعتقاد والمناصرة على الفعل الفاحش.

ومن الاستبدال المذكور نفسه قوله تعالى في سورة الأعراف⁽¹⁾: ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِرُبٍّ فَلَمَّا دَآءَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقوله في سورة البقرة⁽²⁾: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَّا جِبِينَ﴾، فقد استبدل التركيب الفعلية الماضي: ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِرُبٍّ﴾ بنظيره: ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِرُبٍّ﴾.

والفرق بين الإزلال والتدلية أن الزلّة قد تكون في الموضع نفسه، يقال: زلّ الإنسان عن الصخرة، إذا زلق⁽³⁾، قال الأزهري (282 - 370 هـ): «إذا زلّت قدمه قيل: زلّ وإذا زلّ في مقال أو نحوه قيل: زلّ زلّة، وفي الخطيئة ونحوها»⁽⁴⁾، فهو من الزلل⁽⁵⁾، ومعناه: إنّ الشيطان حمل آدم وحواء على الزلّة، فنحاهما عن الجنة، وإزاله لهما قوله لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلَّةِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَئُتُ﴾⁽⁶⁾، وقوله: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾⁽⁷⁾.

أما التدلية فلا تكون إلا إلى أسفل، لأنها من التدلية في البئر، فإذا دلّيت أحداً

(1) سورة الأعراف، الآية: 22.

(2) سورة البقرة، الآية: 36.

(3) لسان العرب: (11/306) مادة: زلل.

(4) تهذيب اللغة، القاهرة، 1966 م، ج 13، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني وعلي محمد البجاوي، ص: 164 مادة: زلّ.

(5) الأخفش الأوسط - معاني القرآن، تحقيق: فائز فارس، الكويت، 1981، ط 2: (1/67).

(6) سورة طه، الآية: 120.

(7) سورة الأعراف، الآية: 20.

فقد أنزلته إلى أسفل «وأصله الرجلُ العطشان يدلي في البئر ليروي من مائها فلا يجد فيها ماءً فيكون مدلى فيها بالغرور، فوضعت التندلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعاً»⁽¹⁾، وقال الجوهري، (ت 393 هـ): «و﴿فَدَلْنَهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: أوقعه فيما أراد من تغريره، وهو من ادلاء الدلو»⁽²⁾، ويكون المعنى: إنَّ الشيطان أوقع آدم وزوجه في المعصية بغروره وإقائهما فيها⁽³⁾، وفي هذا تنبيه على أنه أنزلهما بذلك من درجة عالية⁽⁴⁾. وقد خُففت المعصية في آية البقرة وسميت زلةً مراعاة لمقام تكريم آدم عليه الصلاة والسلام في سياق آيات البقرة، بدأ ذلك بقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»⁽⁵⁾، بخلاف السياق في سورة الأعراف التي حوت استفهاماً تقريرياً: «أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ» مشعراً بأن الحدث وقع بعد النهي، وفي ذلك خروج عن أمر الله بغرورٍ من الشيطان الذي أوقعهما فيما هو أكبر من الزلة والمعصية اليسيرة المذكورة في سورة البقرة، فصوّرت حالتها في آية الأعراف بعد الإخراج بما يُشعر بالمعاناة والتعب المستقبل في الحياة لجسامة المعصية التي وقعا فيها.

ومن الاستبدال نفسه أيضاً قوله تعالى في سورة الزمر⁽⁶⁾: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هُنَّوَلَاءَ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ»، وقوله في سورة النحل⁽⁷⁾: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، وذلك بين التركيب الفعلي الماضي: «عَمِلُوا» ونظيره: «كَسَبُوا».

ومما يُلحظ في الآيتين أن الكسب والعمل قد اختيرا ووضعا في موضعهما من

(1) تهذيب اللغة: (172/14) مادة: دال؛ وينظر: التفسير الكبير: (49/14).

(2) الصحاح: (2339/6) مادة: دلو.

(3) الزجاج - إعراب القرآن المنسوب إليه: (801/3).

(4) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (221/3).

(5) سورة البقرة، الآية: 30.

(6) سورة الزمر، الآية: 51.

(7) سورة النحل، الآية: 34.

الآيتين حفاظاً على نسق لغوي واحد انبنى على جذر «ك. س. ب» في آيات سورة الزمر، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾⁽¹⁾، وقال: ﴿سُبِّحْهُمُ سَبِّحَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾⁽²⁾، وعلى جذر «ع. م. ل» في آيات سورة النحل⁽³⁾، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَاءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾⁽⁴⁾، وقال: ﴿وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁶⁾، وقد وجدنا ذكراً للفظ الكسب خمس مرات⁽⁷⁾ في سورة الزمر، ولم نجده البتة في السورة الأخرى.

وأمثلة استبدال التركيب الفعلي الماضي بنظيره كثيرة في القرآن الكريم منها، فضلاً عما ذكرناه، قوله تعالى في سورة الأنعام⁽⁸⁾: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تُخْرِصُونَ﴾ وقوله في سورة النحل⁽⁹⁾: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وذلك بين ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ و﴿مَا أَشْرَكْنَا﴾ وسياق الآيات في سورة الأنعام في الكلام على الشرك وعلى ما

(1) سورة الزمر، الآية: 24.

(2) سورة الزمر، الآية: 51.

(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 408 - 409؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 122 - 123؛ ملاك التأويل: (2/ 739 - 740).

(4) سورة النحل، الآية: 28.

(5) سورة النحل، الآية: 111.

(6) سورة النحل، الآية: 119.

(7) الآيات: 24، 48، 50، 51، في موضعين.

(8) سورة الأنعام، الآية: 148.

(9) سورة النحل، الآية: 35.

زعمه المشركون من محرّمات الأطعمة، وما اعتقدوه من أمور باطلة في أنصبة الحرث والأنعام، وقد كانوا يخضون الله تعالى منها بأشياء وآلهتهم بأشياء⁽¹⁾، ويفترون على الله التحليل والتحریم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾⁽²⁾، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾⁽³⁾، وقال: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْعُنَّ وَأَحْرَثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعُمُ حُرْمَتِ طُهُورِهَا وَأَنْعُمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ سَبْجَرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَحْرَمٌ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَبْجَرِهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾⁽⁴⁾، وقال: ﴿ثُمَّ نَبِيَّةٌ أَرْوَجَ مِنْ الْأَصْنَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَيْتُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَرِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا...﴾⁽⁶⁾، وقال: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاحٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁷⁾، وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَامِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ طُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا

(1) ينظر: الكشاف: (52/2).

(2) سورة الأنعام، الآية: 1.

(3) سورة الأنعام، الآية: 136.

(4) سورة الأنعام، الآيتان: 138 - 139.

(5) سورة الأنعام، الآية: 143.

(6) سورة الأنعام، الآية: 144.

(7) سورة الأنعام، الآية: 145.

أَخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنْتَهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١﴾ (1)، وقال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (2). وسياق الآيات في سورة النحل في الرد على المشركين، وتنزيهه تعالى عن اتخاذ الشركاء، والنعي عليهم في معبوداتهم الباطلة، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (3)، وقال: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (4)، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (5)، وبين ﷺ أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلا مخلوقات مثلهم، بل هم أحظ منهم، لأنهم أموات لا يشعرون، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِلهًا وَجِدًّا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢﴾﴾ (6)، وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخَرِّبُهُمْ وَيَقُولُ ابْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُفِّرُوا كُفْرًا تُسْقَوْنَ فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَةَ أَيْسَرُ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (7)، ثم قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (8)، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ﴾ (9)، وتستمر السورة في بيان أن كل شيء عابد لله تعالى خاضع لمشيئته، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ لِظُلُمٍ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَاتٍ عَالِمَةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ (10)،

(1) سورة الأنعام، الآية: 146.

(2) سورة الأنعام، الآية: 148.

(3) سورة النحل، الآية: 1.

(4) سورة النحل، الآية: 3.

(5) سورة النحل، الآية: 17.

(6) سورة النحل، الآيات: 20 - 22.

(7) سورة النحل، الآية: 27.

(8) سورة النحل، الآية: 35.

(9) سورة النحل، الآية: 36.

(10) سورة النحل، الآيات: 48 - 49.

وقال: ﴿وَلَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَعَبَرَهُ اللَّهُ نُنْقُونَ﴾⁽¹⁾، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾⁽²⁾، فلما كان سياق الآيات في سورة الأنعام في الكلام على الشرك في التحليل والتحریم وبالأخص في الأطعمة، فقد استحضر جذره اللغوي في موضع الاستبدال دون جذر العبادة كما في الآية الأخرى⁽³⁾. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تكاثر ذكر الشرك في سورة الأنعام، حتى بلغ تسعة وعشرين موضعاً⁽⁴⁾، مقابل أحد عشر موضعاً في سورة النحل⁽⁵⁾.

ومن الاستبدال نفسه قوله تعالى في سورة النساء⁽⁶⁾: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقوله فيها أيضاً⁽⁷⁾: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، فوقع الاستبدال في موضع جواب الشرط بين ﴿ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ و﴿افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وقد ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ردّاً على اليهود الذين عرفوا صحة نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله، ولكنهم لم يؤمنوا، لأنهم كما وصفهم تعالى قبل الآية المذكورة بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيًّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي أَلْبَانِهِمْ﴾⁽⁸⁾،

(1) سورة النحل، الآية: 52.

(2) سورة النحل، الآية: 73.

(3) ينظر: التعبير القرآني، ص: 231 - 234.

(4) الآيات: 14، 19، 22 في موضعين: 23، 41، 64، 78، 79، 80، 81 في

موضعين، 88، 94، 100، 106، 107، 121، 136 في ثلاثة مواضع، 137 في

موضعين، 139، 148 في موضعين، 151، 161، 163.

(5) الآيات: 1، 3، 27، 35، 54، 86 في ثلاثة مواضع، 100، 120، 123.

(6) سورة النساء، الآية: 48.

(7) سورة النساء، الآية: 116.

(8) سورة النساء، الآية: 46.

ووصفهم بعدها بقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ وَكَفَى بِهٖ إِثْمًا مُّبِينًا﴾⁽¹⁾، لأنهم افتروا على الله ما ليس في كتابه، بيد أن الآية الثانية في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم لم يتعلقوا بما يهديهم، وليسوا أصحاب كتاب أصلاً، وإنما هم ضالون بعيدون عن الهداية⁽²⁾ بما يدل عليه سياق الآيات قبلها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁽³⁾، وبعدها قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا﴾⁽⁴⁾، ثم قال على لسان الشيطان نفسه: ﴿وَلَا ضَلَّٰهُمْ وَلَا مُبِينًا﴾⁽⁵⁾، وثمة ملحظ جميل ذكره الفخر الرازي في الربط بين هاتين الآيتين في سورة النساء بقصد التأكيد فقال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلًا بَعِيدًا﴾: لأنه تعالى لم يعد آية آية من آيات الوعيد في القرآن الكريم بلفظ واحد مرتين ترجيحاً للوعد على الوعيد⁽⁶⁾، مع خلاء السياق من تأكيد جسامة الموقف وما يتصل به من جسامة العاقبة.

وآخر ما نعرض له من أمثلة استبدال التركيب الفعلي الماضي بنظيره قوله تعالى في سورة فصلت⁽⁷⁾: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا

(1) سورة النساء، الآية: 50.

(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 79 - 80؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 55؛ ملك التأويل: (1/347 - 348)؛ البرهان في علوم القرآن: (1/87)؛ الإتيان: (3/351)؛ معترك الأقران: (1/45)؛ أحمد أحمد بدوي - من بلاغة القرآن، القاهرة، 1950 م: 85؛ من أسرار التعبير في القرآن، ص: 152 - 153.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) سورة النساء، الآية: 117.

(5) سورة النساء، الآية: 119.

(6) ينظر: التفسير الكبير: 45/11.

(7) سورة فصلت، الآية: 50.

عَمِلُوا وَلَيُدْبِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ ، وقوله في سورة الكهف (١) : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ ، وذلك بين : ﴿رُودْتُ﴾ و﴿رُجِعْتُ﴾ ، والجديد في وصف هذين التركيبين أن فعليهما مبيان للمجهول، والضمير فيهما نائب عن الفاعل، وقد سبق التركيب في آية الكهف ضربُ الله مثلاً بجنتين في الدنيا جعلتا لرجل ظلم نفسه، فلم يشكر الله على النعمة التي أنعمها عليه، وظن أنها لا تفتنى أبداً، وأنكر قيام الساعة، قال تعالى : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رُّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٦﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْثَمًا وَلَمْ يَشْكُرَا مِمَّا جَاءَتْهُمَا شَبَابًا وَقَفِرْنَا لِحُدُودِهِمَا نَهْرًا ﴿٣٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٨﴾﴾ (٢) ، وقال : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُمْ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ يَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (٣) ، فالجنتان الموصوفتان قد حوتا مراده، واشتملتا على كل ما أراده من النعيم الذي زعم لنفسه أنه دائم أبداً، ولما كان الرد عن الشيء لا يخلو من كراهة المردود لطبيعة هذا الفعل الذي يقع خلاف رغبته، كنقل الرجل المذكور عن جنته الزاهية إلى ما زعم لنفسه أنه سيكون أحسن منها حين يُرد إلى ربه فإن استعمال جذر الرد يلفتنا إلى أن الرجل كان يبطن في سره تفضيلاً للأولى على الثانية مع أنه قال ما قال في مقام تلميته لنفسه، ولم يتقدم آية «فصلت» مثل ما تقدم آية «الكهف»، قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٤﴾﴾ (٤) ، ثم قال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِىَ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَمَا عَمِلُوا وَلَيُدْبِقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ

(1) سورة الكهف، الآيتان: 35 - 36.

(2) سورة الكهف، الآيات: 32 - 34.

(3) سورة الكهف، الآيتان 35 - 36.

(4) سورة فصلت، الآية: 49.

عَلِيظٍ⁽¹⁾، وليس في «رجع» من كراهة الإرجاع⁽²⁾ ما في «رد» من كراهة الرد، لأنه لم يتضمن أكثر من ذكر مجرد لحدث الإرجاع من غير أي ظل معنوي كالظل النفسي الذي لمحنه في استعمال جذر الرد المقتضي كراهة الحدث بعد بوار الجنة الدنيوية التي فضلها المردود على الجنة التي سيستقبلها كما زعم عند ربه لو ردة إليه.

الفعلي الماضي - الفعلي الحاضر:

وأمثلته أقل من أمثلة النمط الأول في القرآن الكريم، قال تعالى في سورة فاطر⁽³⁾: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، وقال في سورة آل عمران⁽⁴⁾: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِمَّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ و﴿يُكَذِّبُوكَ﴾. وقد وردت آية فاطر في سياق الكلام على الهداية والاستجابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَا فإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ. وَإِلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٢﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٤﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٥﴾﴾، ثم قال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، فالمقام مقام الهداية والاستجابة، وتبليغ الرسالة والدعوة، وقد أتى بالفعل المضارع للدلالة على ضرورة استمرار التبليغ والإنذار والدعوة إلى الهداية أبداً. والمقام في آية آل عمران في استذكار تاريخي لحادثة معينة بقوله تعالى:

(1) سورة فصلت، الآية: 50.

(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 282؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 133.

(3) سورة فاطر، الآية: 25.

(4) سورة آل عمران، الآية: 184.

(5) سورة فاطر، الآيات: 18 - 24.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عِهْدٌ لَّيْسَآ أَلَّا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تُأْكَلُهُ
النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٨٢﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ
الْمُنِيرِ ﴿١٨٣﴾﴾ (١) مما لا يناسبه غير التعبير بالفعل الماضي (٢).

ونظير آية فاطر قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِّن
قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٣) في سياق الهداية والاستجابة والتبليغ، وقد قال تعالى
قبل هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِّن خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّن
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تُوَفَّقُوا﴾ (٤)، وقال بعدها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُؤُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذِّبٌ
فَاعْتَدُوا عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِّنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ (٥)، وقد أتى بالفعل
المضارع للسبب الذي ذكرناه آنفاً، فضلاً عن بناء الكلام في آية آل عمران على
الاختصار، والاكتفاء بالقليل عن الكثير، على خلاف ذلك في آية فاطر (٦)، ومما
يدل على ذلك أمور هي:

أولاً: بناء الفعل الماضي للمجهول في آية آل عمران: ﴿كَذَّبَ﴾ وللمعلوم في
آية فاطر: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مما اقتضى التصريح بالفاعل وإطالة
العبارة، وقد وقعت هذه المفارقة أيضاً في ﴿جَاءُوا﴾ في آل عمران، و﴿جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ﴾ في فاطر.

ثانياً: ذكر الباء مع كل معطوف في آية فاطر: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
وحذفها في آل عمران: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾، وربما كان التحول من

(١) سورة آل عمران، الآيتان: 183 - 184.

(٢) ينظر: التعبير القرآني، ص: 143.

(٣) سورة فاطر، الآية: 4.

(٤) سورة فاطر، الآية: 3.

(٥) سورة فاطر، الآيتان: 5 - 6.

(٦) ينظر: درة التنزيل، ص: 75.

المضي إلى الحضور بما اقتضاه من الإتيان بحرف المضارعة في آية فاطر دليلاً آخر على الظاهرة التعبيرية المشار إليها أيضاً .

ومن استبدال التركيب الفعلي الماضي بالمستقبلي الذي هو نمط معروف من الحاضري في توجيهات النحاة، قوله تعالى في سورة الأعراف⁽¹⁾: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُقِنَهُ لَيْلًا مَّيْمَنًا فَنَزَلْنَا بِهَا الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وقوله في سورة الفرقان⁽²⁾: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿أَرْسَلَ﴾ و﴿يُرْسِلُ﴾، والمقام في آية الأعراف دعاء وتضرع، وخوف وطمع، وقد قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُتَعَدِّينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَقَطْمًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾⁽³⁾، فكان في هاتين الآيتين بعث على الدعاء والتضرع، وتعليق للخوف والطمع بالرحمة، والتعبير بالفعل المضارع كما أسلفنا دالاً على ضرورة استمرار ذلك وتجده في المستقبل دائماً، مع ما في هذه الآية من مقابلة بين صورتها إحياء البلد الميت بالماء، وإحياء البشر بعد موتهم، ومن المعلوم أن إخراج الموتى غير حاصل في الماضي، ولكنه يحصل في المستقبل.

وقد عبر في سورة الفرقان بالماضي: ﴿أَرْسَلَ﴾، ليتشاكل مع السياق الذي تضمن سرداً للنعمة التي كان الله تعالى قد أنعمها على عباده، ومنها إرسال الرياح⁽⁴⁾، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ نَرِإِنَّ رَيْبَكَ كَيْفَ مَدَّ الْأَطْلَاقَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿١٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

(1) سورة الأعراف، الآية: 57.

(2) سورة الفرقان، الآية: 48.

(3) سورة الأعراف، الآيات: 55 - 56.

(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 148؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 81.

أَيْلَ لِيَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾⁽¹⁾، فكل ذلك قد تحقق في الماضي مع ديمومة وقوعه في الحاضر والمستقبل، على وفق ما جرى عليه التعبير في سورة الأعراف.

الفعل الحاضر ← الفعل الحاضر:

قال تعالى في سورة الأنعام⁽²⁾: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنْزَلْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْثِ وَالْزَيْطِ وَالْقِسْطَ لَا تَكْفُلُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾، فقد قال: ﴿تَقُولُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿تَتَّقُونَ﴾ في خواتم الآيات الثلاث التي تضمنت الوصايا الأخلاقية العشر:

- عدم الإشراف بالله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.
- الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.
- النهي عن قتل الأولاد: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾.
- عدم التقرب من الفواحش: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.
- النهي عن قتل النفس إلا بالحق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.
- النهي عن التصرف في مال اليتيم إلا فيما ينفعه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

(1) سورة الفرقان، الآيات: 45 - 47.

(2) سورة الأنعام، الآيات: 151 - 153.

- الأمر بالإيفاء في الكيل والميزان، لأن نقصهما يؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل: ﴿رَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

- العدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

- الوفاء بالعهد الذي أخذه الله على الناس جميعاً بأن يوحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه، وأن يقوموا بما تعاقدوا عليه والتزموا به على أساس من حكمه تعالى وشرعه: ﴿وَيَهْدِي اللَّهُ أَوْفُوا﴾.

- اتباع صراطه المستقيم: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾.

ولدى تمثل هذا النسق سنرى أن الوصايا الخمس الأولى قد مهدت لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لأن عدم العقل وما يتصل به من غلبة الهوى هو الذي يحمل على تركها، وكل من المعاصي الخمس التي جاء التحذير منها بالوصايا المذكورة قبيح في العقل، محتاج في منع النفس عنه إلى زاجر من العقل نفسه، ولهذا جاءت الخاتمة بالتأكيد على فاعلية العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان بوصفه في أشرف سجايه، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أما الوصايا الأربع الأخرى فإن المعصية فيها من الأمور الخفية الغامضة التي لا بد فيها من الاجتهاد والفكر، حتى يقف الإنسان إلى موضع الاعتدال في التمثل بالوصايا الواردة بشأنها، ولهذا جاءت الخاتمة تأكيداً على فاعلية التذكر، بوصفه من نتاج العقل الإنساني أيضاً، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. في حين إن الوصية العاشرة وهي الحث على اتباع الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا انحراف، لأنه شرع الله، قد ختمت بالإشارة إلى فاعلية التقوى التعبديّة التي ترسم طريق العبد إلى حيث ينجي نفسه من غضب الله ومن عقابه⁽¹⁾، لأن ذلك هو غرض الحياة كلها في أطرها الاعتقاديّة السليمة التي لا تتأسس على انحراف في اتجاه الإنسان إلى ربه الذي أنشأه وألهمه العقل والقدرة

(1) ينظر: درة التنزيل، ص: 137 - 138؛ ملاك التأويل: (1/480 - 481)؛ الإتيان:

(3/348 - 349)؛ معترك الأقران: (1/42 - 43).

على التذكر ومحاسبة النفس في كل مواقف الحاضر والمستقبل مما تستدعي الصيغة المضارعية التي تؤكد على ديمومة فاعلية العقل والتذكر والتقوى في صياغة الحياة من التدمير الذي يمكن أن ينتج عن الخطل والنسيان وفساد الاعتقاد لقلّة التقوى أو انعدامها، كما جرى التعبير بالصيغة المضارعية: ﴿يَفْقَهُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ﴾ في آيتين متعاقبتين أيضاً في سورة الأنعام⁽¹⁾: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾﴾، وكان الاختتام بجذر العلم في الآية الأولى لأن العلم بنجوم السماء، وتعيين الكواكب، واشترакها مع الشمس والقمر في التنقل من منازلها، وحساب النجوم والاهتداء بها، إنما يختص بها أولئك الذين يدركون منافع هذه النجوم وفوائدها، ويستدلون بها على معرفة الصانع الحكيم⁽²⁾، كما أن الاختتام بجذر الفقه في الآية الثانية لأن إنشاء الخلائق من نفس واحدة، وتصريفهم في أحوال كثيرة، كنقلهم من الأصلاب إلى الأرحام، ثم إلى الحياة الدنيا، ثم إلى البعث والنشر، مما يستدعي مزيد فكر وتأمل وتدقيق نظر، والفقه هو الفطنة⁽³⁾، والتوصل إلى علم غائب بعلم شاهد، وهو بهذا أخص من العلم⁽⁴⁾، لأنه يستدعي فهم الأشياء الدقيقة بالتدبر والتأمل⁽⁵⁾، بخلاف العلم الذي يمكن أن يُكتسب أحياناً بأدنى ملاحظة أو سماع أو نظر سريع.

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 97 - 98.

(2) ينظر: درة التنزيل، ص: 125 - 126؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 71 - 72؛ ملاك التأويل: (1/462 - 464)؛ البحر المحيط: (4/188)؛ الإتيان: (3/349).

(3) المخصص: (3/33) مادة: الفقه.

(4) المفردات في غريب القرآن، ص: 384.

(5) ينظر: درة التنزيل، ص: 125 - 126؛ الكشاف: (2/39)؛ التفسير الكبير: (13/104)؛ أسرار التكرار في القرآن: (71 - 72)؛ ملاك التأويل: (1/462 - 464)؛

البحر المحيط: (4/188)؛ الإتيان: (3/349)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (3/166)؛ فتح القدير: (2/144).

ومن المناسب أن نتجه بنظرنا ههنا إلى قوله تعالى في سورة البقرة⁽¹⁾: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْنَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَمَقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وقوله في سورة المائدة⁽²⁾: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، لنرى وجه الاستبدال الذي وقع بين: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَمَقِلُونَ﴾ في الآيتين، والعلم كما يقال أبلغ درجة من العقل، لأنه إدراك الشيء بحقيقته⁽³⁾، والعاقل هو الذي يحبس نفسه، ويمنعها عن هواها، وإنما سُمي العقل لأنه يعقل صاحبه عما تدعو إليه الشهوات، أي: يحبس⁽⁴⁾، ولهذا جاز وصف الله تعالى بالعلم، ولم يجز وصفه بالعقل، فإذا كانت رتبة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أعلى من رتبة ﴿يَمَقِلُونَ﴾ فقد أخبر الله عن الكفار في سورة المائدة بأنهم ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ فادَّعوا النهاية بقولهم: ﴿حَسْبُنَا﴾ الذي يُستعمل فيما يكفي في بابه، ويغني عن غيره، فنفي ذلك بالعلم وهو النهاية، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، بيد أنه تعالى لم يخبر في آية البقرة عن تناهيهم في معرفة ما أتبعوا فيه آباءهم، ولم يدَّعوا أن ما ألفوا عليه آباءهم كان حسبهم وكافيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْنَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾، فلذلك نفي ادعاءهم بما هو دون العلم منزلة، وهو العقل⁽⁵⁾، فقال: ﴿أَوْلَوْ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَمَقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، ومثل هذه الفروق مما يعين المفسر والدارس على فهم المقاصد القرآنية بدقة فيما يبدو في ظاهره مؤتلفاً غير مختلف ولكنه في حقيقته كبير الاختلاف، كاختلاف الإيمان عن التذكر في آخر قوله تعالى في آيتين متعاقبتين

(1) سورة البقرة، الآية: 170.

(2) سورة المائدة، الآية: 104.

(3) المفردات في غريب القرآن، ص: 343.

(4) لسان العرب: (11/458 - 459) مادة: عقل.

(5) ينظر: درة التنزيل، ص: 39 - 40؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 38.

في سورة الحاقة⁽¹⁾: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾، وإنما نفيت الشعرية عن القرآن وقرنت بالإيمان لأنها ظاهرة واضحة، لا يخفى على من له أدنى معرفة، ولا ينكرها إلا معاند، فمن قال: إن القرآن شعر فقد كفر، في حين إن نفي السجع الكهاني عنه محتاج إلى تذكّر وتدبر، لأن كلاً منهما نثر، فليست مخالفة القرآن له في وضوحها لكل أحدٍ كمخالفته الشعر، وإنما تظهر بتدبير نظمه، وما يتضمنه من الفصاحة والبلاغة، ومعانيه المنافية لطريقة الكهنة⁽²⁾، فكان الاختتام بالإشارة إلى ضرورة تذكّر هذه القضية التي لا تدخل مدركها في الدائرة الكفرية إلا بعد التأكد من أسرارها والجنوح عنها إلى الاعتقاد الفاسد بأن القرآن شبيه بسجع الكهان، مما نفاه الباري ﷻ نفيًا قاطعاً كما نفى الشعرية أيضاً.

ومن أمثلة استبدال التراكيب الفعلية الحاضرة الكثيرة في القرآن بما يناظرها في التشكيل النحوي ويطابقها أو يفارقها في الدلالة قوله تعالى في سورة الأعراف⁽³⁾: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله في سورة يونس⁽⁴⁾: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ وهو استبدال في نوع ضميّة المضارعة في ﴿يَطْبَعُ﴾، مع إظهار الفاعل في آية الأعراف وإضماره في آية يونس، والطبع هو: الختم، يُقال: طبع الله على قلوب الكافرين... أي: ختم: فلا يعي، وغطى فلا يُوفِّق لخير⁽⁵⁾، وقد بُنيت آية

(1) سورة الحاقة، الآيتان: 41 - 42.

(2) ينظر: الإتقان: (3/ 349 - 350) معترك الأقران: (1/ 43 - 44)؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (9/ 27).

(3) سورة الأعراف، الآية: 101.

(4) سورة يونس، الآية: 74.

(5) لسان العرب: (8/ 232) مادة: طبع.

الأعراف على ما تقدمها من الآيات التي انتقل فيها من الإضمار إلى الإظهار ومن الإظهار إلى الإضمار في إخبار الله ﷻ عن نفسه، كالإضمار في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾⁽¹⁾، والإظهار في قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾⁽²⁾، والإضمار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾⁽³⁾، ثم العودة إلى ذكر الطبع والطابع مظهراً في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ مراعاة لما بنيت عليه الآيات المقدمة من نسق الانتقال الذي أشرنا إليه، في حين أن إضمار الفاعل في آية يونس مبني على ما قبلها وما بعدها من الآيات، وهو إضمار لم يداخله أي إظهار للفاعل⁽⁴⁾، كما حصل في سياق آيات الأعراف، فقد قال تعالى قبل آية يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿١٠٢﴾⁽⁵⁾، وقال في مفتحها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴿١٠٣﴾، ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٠٤﴾⁽⁶⁾ بلزوم الإضمار وحده لتوحيد صورة الفاعلية من حيث شكلها النحوي المشار إليه على خلاف ما جرى في السورة الأخرى، مما لا يستبعد أن يكون مقصداً نحويّاً في التعبير القرآني وملحظاً من ملاحظ إعجازه التي لا تكتشف بغير النظر والتأمل الدقيق، وهي جدٌ كثير، منها في إطار ما نعني به من استبدال التركيب الفعلي

(1) سورة الأعراف، الآيتان: 97 - 98.

(2) سورة الأعراف، الآية: 99.

(3) سورة الأعراف، الآية: 100.

(4) ينظر: درة التنزيل، ص: 166 - 167؛ أسرار التكرار في القرآن، ص: 88؛ ملاك التأويل: (1/558).

(5) سورة يونس، الآية: 73.

(6) سورة يونس، الآية: 75.

الحاضري بنظيره قوله تعالى في سورة الروم⁽¹⁾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله في سورة الزمر⁽²⁾: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك بين: ﴿بَرًّا﴾ و﴿يَعْلَمُوا﴾ المنفيين. وقد جاءت آية الروم بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾⁽³⁾، والمعنى: إذا أنعمنا عليهم نعمة تُرى عليهم، من مطر، أو سعة، أو عافية، فرحوا بها، وإن أصابتهم عقوبة، وبلاء، من جذب، أو ضيق، أو مرض، قنطوا من الرحمة، وفعلوا فعل اليائس من أن يشمله الله بنعمة إن تاب من المعاصي، ورجح إلى الله⁽⁴⁾، وهاتان الحالتان مرثيتان عندهم، ومشاهدتان «فإن من بسط له الرزق روي ماله ولم يخف على المشاهد حاله، ومن انقلب أمره، وانقطع خيره، أدركت العين منه خلاف ما كان قبل»⁽⁵⁾.

فلما جاءت هذه الآية بعد ذكر النعمة، وحال الإنسان إذا سلبت منه، والنعمة مرثية، ناسب هذا المكان الإتيان بجذر الرؤية الذي جرى استعماله في سورة الروم سبع مرات⁽⁶⁾ بما يشبه أن يكون مقصداً إعجازياً من مقاصد العبارة القرآنية، كما جرى استعمال جذر العلم في سورة الزمر إحدى عشرة مرة⁽⁷⁾ ومنها الآية التي نحن بصددنا، في حين وقع استعمال جذر الرؤية في سورة الزمر ست مرات⁽⁸⁾ ووقع استعمال جذر العلم في سورة الروم عشر مرات⁽⁹⁾، لإقرار النسق اللغوي

(1) سورة الروم، الآية: 37.

(2) سورة الزمر، الآية: 52.

(3) سورة الروم، الآية: 36.

(4) ينظر: الكشاف: 223/3.

(5) درة التنزيل: 371.

(6) الآيات: 9، 24، 37، 42، 48، 50، 51.

(7) الآيتان: 7، 9 في موضعين، 26، 29، 39، 46، 49 في موضعين، 52، 70.

(8) الآيات: 21، 38، 58، 60، 68، 75.

(9) الآيات: 6، 7، 22، 29، 30، 34، 54، 56 في موضعين، 59.

الغالب في الاستعمال على نظيره في كل من السورتين، وقد سبق آية الزمر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾، فلما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم من الله بفضلني واستحقاقي⁽²⁾ ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ناسبه ذلك القول: [أَلَمْ يَعْلَمُوا] مقابل ادعائهم العلم بقول الكافر منهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ كمناسبة التعبير بالرؤية في سورة الروم، فضلاً عن ملاحظة طريقة أخرى في تعبير كل من السورتين، فقد ذكر ﴿فَاعْزِزْ بَصَرِي﴾ فاقدي البصر في سورة الروم، فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ﴾⁽³⁾، وذكر فاقدي العلم في سورة الزمر⁽⁴⁾، فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾⁽⁵⁾ لتحقيق وحدة النسق الغالب كما أسلفنا على نظيره في سياق السورتين، ولكي يتسق ما نعرضه من أمثلة استبدال التركيب الفعلي الحاضري بنظيره مع سعة اتساع هذه الظاهرة في النص القرآني، نذكر في ذلك قوله تعالى في سورة يونس⁽⁶⁾: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله في سورة الأنعام⁽⁷⁾: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقد استبدل فيه: ﴿يَمَسُّكَ﴾ بـ ﴿يُرِدْكَ﴾ في ذكر الخير، وقد أتت آية يونس بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁽⁸⁾، وهذا إخبار منه ﴿فَاعْزِزْ بَصَرِي﴾ بجري الخلائق على ما قدر لهم أولاً،

(1) سورة الزمر، الآية: 49.

(2) الجامع لأحكام القرآن: (266 / 15).

(3) سورة الروم، الآية: 53.

(4) ينظر: التعبير القرآني، ص: 161.

(5) سورة الزمر، الآية: 64.

(6) سورة يونس، الآية: 107.

(7) سورة الأنعام، الآية: 17.

(8) سورة يونس، الآية: 96.

وسبق به حكمه تعالى ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾⁽¹⁾، وهذا تأكيد للأمر المذكور، وإن ذلك لا يردده، ولا يعارضه معارض، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُ يَخِيرُ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، ثم قال تعالى: بعد ذلك: ﴿يُصِيبُ بِوَيْءٍ مِّنْ يَشَاءُ مَن يَّعْبُدُ﴾، وإصابته ﷻ من يشاء من عباده بالخير هو المراد بقوله في آية الأنعام: ﴿وَإِن يَمَسَّكَ بَخِيرٌ﴾، فالمس في اللغة هو اللمس⁽²⁾، واستعمل هنا في الإصابة مجازاً، أي: وإن يصبك بخير، أو: ينلك خيراً⁽³⁾. وبهذا يكون قد اجتمع الأمران في آية يونس معاً، وكأنه قد قيل: وإن يمسسك بخير ويردك به فلا رادّ لما أصابك به، وأراده لك، وفي هذا من التأكيد ما ليس في آية الأنعام، وذلك ليطابق هذا التأكيد ما تقدم من قوله في سورة يونس⁽⁴⁾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾⁽⁵⁾، مما لم يتقدم مثله في آية الأنعام⁽⁶⁾ التي اكتفي فيها بقوله: ﴿وَإِن يَمَسَّكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ويفهم من هذا أنه تعالى قد أكد ذكر الخير في آية يونس أكثر مما في آية الأنعام، فذكر إرادة العبد به، وبأنه فضل لا رادّ له، وأنه يصيب به من يشاء من عباده من رحمته بهم وغفرانه لما يبدر منهم مقابل إشارته في سورة الأنعام إلى أنه يمسسهم بالخير من مصدر قدرته القادرة على كل شيء، ومثل هذه الفروق الدلالية بين التراكيب ميدان كبير لعمل النحوي والمفسر من حيث يريان الوجوه التي تؤكد السمة الإعجازية في العبارة القرآنية، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف⁽⁷⁾: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ

(1) سورة يونس، الآية: 99.

(2) لسان العرب: (6/217). مادة: مسس،؛ المفردات في غريب القرآن، ص: 467.

(3) ينظر: درة التنزيل، ص: 113؛ الجامع لأحكام القرآن: (6/398)؛ (6/398)؛ (8/388)؛ ملاك التأويل: (1/430).

(4) سورة يونس، الآية: 96.

(5) سورة يونس، الآية: 99.

(6) ينظر: الكشاف: (2/256)؛ ملاك التأويل: (1/426 - 430).

(7) سورة الأعراف، الآية: 39.

لِأَخْرَجْتَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١﴾ ، وقوله في سورة الأنفال (١): ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ، فاستبدل ﴿تَكْفُرُونَ﴾ بـ ﴿تَكْفِبُونَ﴾ تأسيساً على وعيده ﷺ بالعذاب، وقد سوغ هذا الاستبدال اختلاف المقام في آية الأعراف عنه في آية الأنفال، فسياق آية الأعراف في أمم متفرقة، وأصناف من المكذبين، تنوع كفرهم وتكذيبهم، وارتكبوا المعاصي، وافتروا على الله الكذب، فقال ﷺ في حقهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ (٢)، وقال: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَجْتُمْ لِأَوْلَانِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولُنَّهُمْ لِأَخْرَجْتَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفِبُونَ ﴿٣٩﴾ (٣)، وقد ذكر الكسب إيماءً إلى تنوع ما اجترحوه من المخالفات والذنوب والضلالات، بيد أن سياق آية الأنفال في كفار قريش (٤) وهم عبدة أوثان لم تتكرر فيهم الرسل، ولم يكن منهم غير الكفر والتكذيب بالرسول ﷺ (٥) في رسالته إليهم، فأوعدهم ﷺ بالعذاب على هذا النمط المعين الواحد من الفعل الإنساني، ومن هنا يكون مآتى الفرق بين دلالة التركيبين منبعثاً من الوحدة والتنوع في طبيعة ما اقترفه المذكورون في الآيتين من الذنوب والمعاصي وهم في حالتهم الأولى متعددون اتصف عصيانهم بالتنوع من زاوية كثرتهم واختلاف أحوالهم وظروفهم وأزمتهم، وفي حالتهم الثانية فئة واحدة من الناس كذبت رسولها كما كُذِّب أولئك الرسل الكثر الذين أرسلوا إليهم، ولكنهم لم يُعرفوا بغير الكفر الذي

(١) سورة الأنفال، الآية: 35.

(٢) سورة الأعراف، الآية: 37.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: 38 - 39.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: (400 / 7).

(٥) ينظر: ملاك التأويل: (1 / 494 - 495).

انسجمت معه وانطلقت منه كل ألوان المعصية التي ذُكرت عنهم كإيذاء النبي، ومحاولة قتله، والاعتداء على أصحابه، ومحاصرتهم، وما شاكل كل ذلك مما سجته التواريخ.

ونخلص من هذا إلى أن استبدال التركيب بالتركيب آتٍ من زاوية ذات بُعد عميق، يضرب في الاجتماع والتاريخ والاعتقاد، وفي غير ذلك مما لا يُلمح إلا بالتأمل وتدقيق النظر. وربما سأل السائل: وما الفرق بين: ﴿نَزُّوهُمْ وَإِنَّا كَرُّهُ﴾ و﴿نَزُّوكُمْ وَإِنَّا هُمْ﴾ في قوله تعالى في سورة الإسراء⁽¹⁾: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرُّهُ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾، وقوله في سورة الأنعام⁽²⁾: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شُرُوكِ آبَائِكُمْ وَآلِئِنَّكُمْ لَإِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا هُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَنَّاكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ؟﴾، فيجيب بأن رزق الأبناء قد قُدم في آية الإسراء على رزق الآباء، لأن الخطاب هنا للأغنياء، بدليل قوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، فإنه لا يخشى الفقر إلا مَنْ كَانَ غَنِيًّا، إذ الفقير منغمس في الفقر، ولفظ الخشية يوحي بالخوف الآتي مستقبلاً، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الآباء برزق أبنائهم إشعاراً لهم بالطمأنينة والارتياح إلى أن أبناءهم لن يشقوا عليهم بأرزاقهم لأنهم يأتون مع أرزاقهم بقدر إلهي مقدور، وقد قُدم رزق الآباء في آية الأنعام على رزق الأبناء، لأن الخطاب للفقراء، وذلك أن العرب كانوا يقتلون أولادهم من إملاقهم وافتقارهم واحتياجهم⁽³⁾، وكان الواحد منهم محتاجاً إلى الرزق العاجل للقيام بالإنفاق على أولاده، لأن الآباء في مثل هذه الحالة هم المكلفون بالسعي والإنفاق، فكان مناسباً أن يكون الخطاب بتقديم رزق الآباء، لإفادة أنهم

(1) سورة الإسراء، الآية: 31.

(2) سورة الأنعام، الآية: 151.

(3) ينظر: مجاز القرآن: 1/ 208، 375؛ جامع البيان في تفسير القرآن: 8/ 60، 57/ 15.

نظائرها من التراكيب الفعلية الماضية المنقطعة والاسمية القليلة التي سنعنى بها فيما نستقبل، كما يستقر في بنى الصيغ الفعلية نفسها من القدرة على تحمل المعاني وتشكيلها والاتجاه بها إلى مقاصد مستفادة من الضمانات السياقية التي ترتبط بها. ومن الأمثلة التي نستكمل بها دراستنا لاستبدالات التراكيب الفعلية الحاضرة بنظائرها في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الزخرف⁽¹⁾: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وقوله في سورة الجاثية⁽²⁾: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين ﴿يَظُنُّونَ﴾ و﴿يَخْرُصُونَ﴾، وآية الزخرف واردة في سياق الإخبار عن المشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنُّبُ شَهَدَتُهُمْ يُسْأَلُونَ﴾⁽³⁾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾، فقد قالوا: الملائكة بنات الله، وأن الله تعالى أراد أن يعبدوهم، وليس قولهم هذا عن علم، فأبطل ادعاءهم وحكم عليهم بالحرس وهو الكذب⁽⁴⁾، بيد أن آية الجاثية خبر عن الكفار الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾، وخلطوا في قولهم هذا الصدق بالظن الكاذب، لأن قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ صدق، وقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ظن كاذب في حقيقة البعث بعد الموت وحقيقة الباعث، والظن ههنا شك⁽⁵⁾، وحيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بألسنتهم⁽⁶⁾.

وقال تعالى في سورة يونس⁽⁷⁾: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا

- (1) سورة الزخرف، الآية: 20.
- (2) سورة الجاثية، الآية: 24.
- (3) سورة الزخرف، الآيتان: 19 - 20.
- (4) مجاز القرآن: (1/206)؛ لسان العرب: 21/7 مادة: خرص.
- (5) تهذيب اللغة: (14/362) مادة: ظن.
- (6) جامع البيان في تفسير القرآن: (25/93).
- (7) سورة يونس، الآية: 42.

لَا يَعْقِلُونَ ﴿﴾، وقال فيها أيضاً⁽¹⁾: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: ﴿يَنْظُرُ﴾ و﴿يَسْتَمِعُونَ﴾، وإنما جمع المستمعون في الآية الأولى لأنهم أكثر من الناظرين على وجه العموم، وذلك «بناءً على عدم توقف الاستماع على ما يتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب»⁽²⁾، وأفرد النظارة حملاً على اللفظ لأنهم لم يكثروا كثرة المستمعة⁽³⁾، مع احتمال الجمع والإفراد بالضميمة السياقية (مَنْ) الموصولة، واحتمال أن يكون الجمع والإفراد قد وقعا لسبب آخر غير ما ذكرنا، لأن التأثير بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع، لا بحسب الرؤية، فأفرد النظر لأن رؤية النبي ﷺ واحدة، لا تختلف عند الرائيين، وجمع الاستماع لاختلاف أثره من شخص لآخر⁽⁴⁾، وقد أفرد لفظ الاستماع في قوله تعالى في سورة الأنعام⁽⁵⁾: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا . . .﴾ وقوله في سورة محمد⁽⁶⁾: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ مَا نَفْقَهُ . . .﴾، لأن آية الأنعام نزلت في بضعة رجال من قريش، هم: أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل⁽⁷⁾، فوحد الاستماع هنا لقلّة المستمعين قياساً بجمع الكفار الذين عنتهم الآية الكريمة في سورة يونس، والمنافقون الموماً إليهم في آية سورة محمد قلّة كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ في المدينة، فيسمعون كلامه ولا يلقون له بالاً⁽⁸⁾، وقلتهم هذه مقيسة بمجموع ما كان يحيط به من الكفار يومئذ. والمقصود من آيتي سورة

(1) سورة يونس، الآية: 43.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: (4/148).

(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 103.

(4) ينظر: التعبير القرآني، ص: 46.

(5) سورة الأنعام، الآية: 25.

(6) سورة محمد، الآية: 16.

(7) الكشاف: (2/11).

(8) ينظر: الكشاف: (3/534).

يونس إعلام الرسول ﷺ بأن هؤلاء الكفار قد بلغوا في كفرهم وعنادهم وعداوتهم له والمسلمين حدّاً يصعب فيه هدايتهم، لأن الأصمّ الأحمق والأعمى الفاقد للبصيرة لا يستطيعان الوقوف على محاسن الكلام، واكتشاف ما ينطوي عليه من الإعجاز، ولا يمكنهما أن يريا ما أجرى الله على يدي رسوله من الخوارق، ولهذا أبدت الآيتان اليأس من هدايتهما⁽¹⁾.

وقد ذكر ابن قتيبة أن في الآيتين دليلاً على فضل السمع على البصر، لأنه «جعل مع الصمم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلّا فقدان النظر»⁽²⁾، ولا تفضيل للسمع على البصر في قوله تعالى في سورة القصص⁽³⁾: ﴿قُلْ أَزْهَقْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ﴾، وقوله فيها أيضاً⁽⁴⁾: ﴿قُلْ أَزْهَقْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وإنما وقع الاستبدال لمراعاة الظرف الذي لا يناسبه إلّا تخصيص السمع أو البصر به، فالليل في الآية الأولى ظرف مظلم، لا ينفذ فيه البصر، فاقترضت بلاغة القرآن الكريم أن يقال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ للمناسبة الكاملة بين الحاسة والوقت المظلم الذي لا يقع فيه الإبصار، بخلاف النهار في الآية الثانية، فهو ظرف مضيء، ينفذ فيه البصر، يناسبه القول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁽⁵⁾، ومثل هذه المراعاة من الدقائق الإعجازية التي لا سبيل إلى الغفلة عنها لدى تمثل العبارة القرآنية، ومنها ذلك الفرق بين التعدي والتقرب في قوله تعالى في سورة البقرة⁽⁶⁾: ﴿أَجَلٌ لَّكُم لَيْلَةٌ

(1) البحر المحيط: (5/161)؛ التفسير الكبير: (17/100 - 101).

(2) تأويل مشكل القرآن، ص: 7.

(3) سورة القصص، الآية: 71.

(4) سورة القصص، الآية: 72.

(5) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 161 - 162؛ البرهان في علوم القرآن: (1/

82)؛ عبد العزيز سيّد الأهل - من الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، القاهرة، 1980

م، ص: 134.

(6) سورة البقرة، الآية: 187.

الْصَّيَّارِ الرَّفَثِ إِلَىٰ نِسَابِكُمْ هُنَّ نِسَابٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ نِسَابٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ نَحْتَانُوتَ أَنْفُسِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْتَنَ بِنِسْرُوهُنَّ وَأَنْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ نَرَىٰ أَيْتُمَا الصِّيَامِ إِلَىٰ الْيَتَىٰ وَلَا تَنْبِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُنَّ فِي الْمَسْجِدِ يَلِكِ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١﴾، وقوله فيها أيضاً (١): ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يُحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ يَلِكِ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فقد ذكر الحدود في الأولى وحظر التقرب منها، وذكرها في الثانية وحظر التعدي عليها، وإنما كان الحظر الأول لأنه تعالى قد نهى عن مباشرة النساء في أثناء الاعتكاف في المساجد، والنهي عن قربان الشيء أبلغ من النهي عن فعله، ويظهر ذلك في قوله تعالى في سورة البقرة أيضاً (٢): ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرَ لَكُمْ﴾، بيد أن الحظر في الآية الثانية: ﴿يَلِكِ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ قد جاء بعد بيان عدد الفاظ الطلاق في قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾، فناسب ذلك النهي عن التعدي والتجاوز (٣) على الحد الذي وقع الإلزام به.

فعلي طلبي ← فعلي طلبي:

قال تعالى في سورة الأعراف (٤): ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾؛ وقال في سورة الشعراء (٥): ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، وقد وقع الاستبدال بين: [أَبْعَثْ] و[أَرْسِلْ] الفعلين الطلبيين اللذين يفيدان وقوع حدثهما

(1) سورة البقرة، الآية: 229.

(2) سورة البقرة، الآية: 222.

(3) ينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 41؛ ملاك التأويل: (1/ 258 - 260)؛ البحر المحيط: (2/ 54)؛ الإتيان: (3/ 394)؛ معترك الأقران: (1/ 93)؛ تيجان البيان في

مشكلات القرآن، ص: 254.

(4) سورة الأعراف، الآية: 111.

(5) سورة الشعراء، الآية: 36.

غَبَّ انتهاء الأمر أو بعيدة، وقد اقتضى سياق الآيات في سورة الشعراء ذكر فعل البعث دون الإرسال، لأن البعث يتضمن معناه ويربي عليه بمعنى الإثارة والإنهاض والتهييج⁽¹⁾، قال الراغب (ت 502 هـ): «إن أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث»⁽²⁾. والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر، بل يكون بإنهاض شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْكَلْبِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدْدِ مُوسَى إِذْ قَالَوا لِنَجْوَى لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁽³⁾، ومعناه: «انهض للقتال معنا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه، وننتهي إلى أمره»⁽⁴⁾، ولما كان المقام في السورة المذكورة مقام زيادة تحد، وقوة، ومواجهة، كما هو ظاهر في سياق آياتها، قال ملاً فرعون: ﴿وَأبعثْ فِي اللدائِنِ حَشِيرِينَ﴾، وهو مقام يؤكد سياق الآيات في السورة الأخرى أيضاً، بيد أن الملا لم يكتفوا بطلب الإرسال بل طلبوا البعث فيما حكته عنهم آية الشعراء، فقد أرادوا أن ينهضوا من المجتمع حاشرين فضلاً عن الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة، وتهييج الناس على موسى، وهذا معنى لا يؤديه فعل الإرسال⁽⁵⁾، ومن الطريف أن نلاحظ تكرار استعمال فعل الإرسال ومشتقاته في سورة الأعراف أكثر مما في سورة الشعراء، فقد ورد في الأعراف ثلاثين مرة⁽⁶⁾، وفي الشعراء سبع عشرة مرة⁽⁷⁾، ولا يخفى ما في هذا التباين من تأكيد طلب الإرسال في السياق

(1) ينظر: لسان العرب: (2/ 116 - 117) مادة: بعث.

(2) المفردات في غريب القرآن، ص: 52.

(3) سورة البقرة، الآية: 246.

(4) الكشاف: (1/ 378).

(5) التعبير القرآني، ص: 293.

(6) الآية: 6 في موضعين، 35، 37، 43، 53، 57، 59، 61، 62، 67، 68، 75 في

موضعين، 77، 79، 87، 93، 94، 101، 104، 105، 111، 133، 134،

144، 157، 158 في موضعين، 162.

(7) الآيات: 13، 16، 17، 21، 27 في موضعين، 53، 105، 107، 123، 125،

141، 143، 160، 162، 176، 178.

الطويل لسورة الأعراف، وكان قوة دلالة البعث على الإرسال وما يصحبه من معاني الإثارة والإنهاض والتهيج هو الذي يرفع العدد القليل من تكراره في سورة الشعراء إلى قوة الإرسال المؤكد عليه في السورة الأخرى، مما يمكن أن نعدّه ملحظاً إعجازياً لا يصل إليه المرء إلا بالنظر والتأمل الطويل.

وقال تعالى في سورة الأنبياء⁽¹⁾: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾. وقال في سورة «المؤمنون»⁽²⁾: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾، وقد وقع الاستبدال بين: [اتَّقُون] و[اعْبُدُون] مما يبدو في ظاهره الدلالي متماثلاً في دواعيه السياقية، ولكننا نلاحظ ورود سياق الآيات في سورة الأنبياء في الإحسان والتفضل، واللطف والرحمة، فقد قال تعالى في قصة أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعَدَّاهُمْ لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ يُلَاقُونَكَ مِنَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا بِرَبِّكَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَاقِبِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ كَانُوا بُسْرُوعُونَ فِي الْخَيْبَةِ وَيَدْعُوكَ رَعْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقال في قصة مريم: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥١﴾﴾، وختم ذلك كله بقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾، فذكر العبادة المأمور بها كل من قص قصصهم، فناسب ورود أمره بالعبادة من رعاها بإحسانه ولطفه من المذكورين جميعاً، بيد أن آية المؤمنين قد جاءت عقب ذكر طوائف كثيرة من

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 52.

(3) سورة الأنبياء، الآيات: 83-86.

(4) سورة الأنبياء، الآيات: 89 - 90.

(5) سورة الأنبياء، الآية: 91.

الأمم العاصية التي أهلكت بكفرها، فقد قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ
فَجَعَلْنَاهُمْ عُتَاةً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾⁽³⁾، واستمر التحذير والتهديد
بعد هذه الآية في قوله تعالى: ﴿فَذَرْنَاهُمْ فِي عَمَزِهِمْ حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾⁽⁴⁾، وغير ذلك. فكان
من المناسب أن يأتي الأمر بالتقوى في آية المؤمنين، بما فيه من التحذير
والتخويف المتسق مع ذكر العقوبات والإهلاك⁽⁵⁾، وقد صاحب كل ما ذكرناه
ورود لفظ التقوى، وبنات جذره اللغوي من المشتقات لم يرد البتة في سورة
الأنبياء، لأنه غير مقتضى فيها بحاجات السياق إليه، بخلاف سورة
المؤمنين⁽⁶⁾، فقد ورد فيها ذلك أربع مرات⁽⁷⁾، باقتضاء أحوال الأمم العاصية
المهلكة للأمر بالتقوى، ويقابل هذا لفظ «العبادة» وما إليه من صيغ جذره اللغوي
ثمانى مرات في سورة الأنبياء⁽⁸⁾، وأربع مرات في سورة المؤمنون⁽⁹⁾ وهذه
المفارقة الإحصائية شبيهة الدلالة بما ذكرناه من مناسبة البعث والإرسال آنفاً
لسياق السورة التي تضمنته، وعددناه ملحظاً إعجازياً جديراً بالتأمل.

التركيب الاسمي + التركيب الاسمي:

وقد ذكرنا في موضع سابق أن هذا النمط من الاستبدال قليل⁽¹⁰⁾ في القرآن

- (1) سورة المؤمنون، الآية: 41.
- (2) سورة المؤمنون، الآية: 44.
- (3) سورة المؤمنون، الآية: 48.
- (4) سورة المؤمنون، الآية: 54.
- (5) ينظر: البحر المحيط: 409/6.
- (6) ينظر: معترك الأقران: 94/3.
- (7) سورة المؤمنون، الآيات: 23، 32، 52، 87.
- (8) سورة الأنبياء، الآيات: 19، 25، 53، 73، 84، 92، 98، 106.
- (9) سورة المؤمنون، الآيات: 23، 32، 47، 109.
- (10) ينظر: الصفحة 157 من هذا الكتاب.

الكريم . قال تعالى في سورة النحل⁽¹⁾: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال في سورة إبراهيم⁽²⁾: ﴿وَمَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وقد وقع الاستبدال في آخر الفاصلتين بين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وجاء في تعليق الفخر الرازي على اختلاف هاتين الفاصلتين قوله: «كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان هما: كونك ظلوماً، كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها وهما: كوني غفوراً، رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً، فأنا رحيم، اعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاءً إلا بالوفاء»⁽³⁾، لأن السياق يقتضي أن يختم كل من الآيتين بما ختمت به، ذلك أن آية النحل في سياق ذكر صفات الله، وتعداد نعمه، وآية إبراهيم في سياق وصف الإنسان، وذكر صلته بالله⁽⁴⁾، قال تعالى في سورة النحل⁽⁵⁾: ﴿وَالَّذِينَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفءً وَمَنْتَفِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِنَّ بَلَدًا لَرَثٌّ لَكُمْ وَكُنُوزًا يَلْبِغُوهَا إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦﴾﴾، وقال: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فذكر نفسه تعالى بالغفران والرحمة من صفاته، وذكر قدرته ونعمه على

(1) سورة النحل، الآية: 18.

(2) سورة إبراهيم، الآية: 34.

(3) التفسير الكبير: (19/ 130 - 131).

(4) ينظر: ملاك التأويل: (2/ 719 - 720)؛ البرهان في علوم القرآن: (1/ 86)؛ الإتيان:

(350/ 3)؛ معترك الأقران: (1/ 44)؛ من بلاغة القرآن، ص: 84؛ التعبير الفني في

القرآن، ص: 205؛ الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 223؛ من

أسرار التعبير في القرآن، ص: 149 - 151.

(5) سورة النحل، الآيات: 5 - 7.

(6) سورة النحل، الآية: 17.

عباده الذين ذكرهم بعضيائهم في سورة إبراهيم⁽¹⁾: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَعَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٣٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسِكُ الْفَرَارِ ﴿٣٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٤٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٤١﴾﴾، ثم ختم هذا القول كله بما ذكره من ظلم الإنسان لنفسه، وكفره بالنعمة

تحذيراً لعباده المؤمنين من الوقوع في ضلالة من يقع في مغبة هذا الذنب الكبير.

وقال تعالى في سورة يوسف⁽²⁾: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ

أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة الأنعام⁽³⁾: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة

الأعراف⁽⁴⁾: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ

سَيُفْعَرُ لَنَا وَإِنْ يَا أَيُّهُمْ عَرَضٌ نِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فحصل الاستبدال

بين التراكيب الاسمية: ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾ و﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾ و﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾

وذلك بإضافة الدار إلى الآخرة في آية يوسف، ووصف الدار بالآخرة في

الأخرين، وفي هذا الوصف مطابقة لما تقدم قبل كل منهما، فقد قال في آية

الأنعام: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فجعل الدنيا صفة للحياة على غرار

وصف الدار بالآخرة مع مراعاة التأكيد في السياقين باللام قبل الدار و«ما وإلا»

في السياق الأول، كما قال في آية الأعراف: ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ﴾ بعد قوله: ﴿يَأْخُذُونَ

عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: الآية 169] فجعل ﴿الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: الآية

169] صفة للمشار إليه المحذوف، وهو الدار الدنيا، فشاكلة أن يقول بعده:

(1) سورة إبراهيم، الآيات: 28 - 31.

(2) سورة يوسف، الآية: 109.

(3) سورة الأنعام، الآية: 32.

(4) سورة الأعراف، الآية: 69.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾. أما الإضافة في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ فلم يتقدم عليها مثل ما تقدم قبل آيتي الأنعام والأعراف⁽¹⁾، وما قبلها هو قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽²⁾، والساعة هي الساعة الآخرة، وهي القيامة، فلما ذكرت الدار أضيفت إليها «فكانه قال: ولدان الساعة الآخرة خير»⁽³⁾، وهذا على وفق ما يراه البصريون، لأنهم لا يجيزون إضافة الشيء إلى نفسه⁽⁴⁾، مما صحَّ عند الكوفيين لدى اختلاف الاسمين، قال الفراء (ت 207هـ) «وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أضيفت الدار إلى الآخرة، وهي الآخرة، وقد تضيف العرب الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾⁽⁵⁾، والحق هو اليقين، ومثله: أتيتك بارحة الأولى، وعام الأولى، وليلة الأولى، ويوم الخميس»⁽⁶⁾، وفي قولهم هذا صحة ظاهرة، لأن عدم التأويل أسلم من التأويل، مع وجود ما يؤيد هذا اللون من الإضافة في القرآن الكريم وكلام العرب.



(1) ينظر: ملاك التأويل: (1/ 449 - 450).

(2) سورة يوسف، الآية: 107.

(3) درة التنزيل، ص: 245؛ وينظر: أسرار التكرار في القرآن، ص: 113.

(4) ينظر: الزجاج - إعراب القرآن المنسوب إليه: (1/ 286)؛ الإنصاف في مسائل

الخلافا: (2/ 436-438)؛ شرح المفصل: (3/ 10).

(5) سورة الواقعة، الآية: 95.

(6) الفراء - معاني القرآن: (2/ 55 - 56).